مقدمـــة

إن ما يدرج على ألسـنة العوام وما تحفظه الذاكرة من أمثال تشتمل على معنى «فرعون» تنـم عن حس دينى أو سياسـى عال إذا ما أدركنا مدلـول هذه الأمثلة وما يراد منها. ومن قبيل ذلك ما صار مثلاً أو قولاً دارجاً من أن «من تحسـبه موسـى تجده فرعون» فى دلالة عـن حس إيمانى للتمييز بين الثنائية المعهودة الحق والباطل، ودلالة عما يمكن أن يحدثه الانخداع فى الآخر من صدمة.

وعلـى غرار هذا الحس الإيمانى نجد الحس السياسـى واضحاً فيمـا يتناقله العوام عن السـبب فيمـا وصل إليه الفرعون من جـبروت وطغيان أو ما يمكـن أن نطلق عليه مجازاً «الفرعنـة» أنه لم يجد من يقف فى وجه طغيانه ويقاومه، ومن يعيده إلى صوابه أو يضرب على يديه. ومع تسليمنا بهذا الحس الإيمانى أو السياسى الظاهر إلا أن البعض قد يقع فى شرك التعميم بإطلاقهم مسمى «الفراعنة» أو «الفرعونية» على عمومه دون إدراك ماهية هذا اللفظ أو هذا اللقب وحدوده.

مـن هنـا وجب تصحيح هـذا المفهوم وإزالة اللبـس المصاحب له فى أذهـان الكثيرين فـى محاولة متواضعة لبلورة «الفرعنة» أو «الفرعونيـة» وقولبتها فى قالب يمكن تحديدها والتعرف إليها من خلاله، ومن خلاله فقط دون أحكام جزافية ودون تعميم غير مبنى على الدقة والحيدة، معتمدين فى ذلك على ما أوردته نصوص العهد القديم من إشارة إلى فرعون ومـا كان منه تجاه بنى إسـرائيل، ثم وبصورة أكبر على مـا أورده القرآن الكريم من جملة الصفات التى وصف بها فرعون، وكشـف عنها فى سـياق تناوله لما دار بينه وبين موسى عليه السلام وما ساقه من إشارات عنه وعن غيره من إسراف فى الكفر وتجاوز فى الطغيان، لنخـرج من هذا التناول إلى جملة مـن الصفات تبلور وتؤطِّر لما يمكن أن نطلق عليه بـالفكر الفرعونـى أو العقيدة الفرعونية. وتلك التى يمكن تحديدها وتعريفها بأنها ذلك الخليط من الصفات المذمومة التى تجمعت معاً فى شخصية واحدة كانت رمزاً لها ووقفاً عليها. ونعنى بهذه الشخصية فرعون موسى ذلك الفرعون الذى لم يذكر العهد القديم اسمه، كما لم يسمه القـرآن. وربما يرجع ذلك إلى ما يتصـف به المنهج القرآنى عند تناوله للقصص من التأكيد

علـى جانب العبرة والعظة بأن تتحول الحادثة التاريخية إلى مادة للاتعاظ والاستشـهاد، وكون القصة تأتى فى سـياق الغرض الدينـى فالقرآن كتاب دعوة دينية لا كتاب للتاريخ، والقصة إحدى وسائله لتبليغ هذه الدعوة.

ولم يكـن لفـظ فرعون يدل على جنس أو على طغيان الحكم، كما قد يفهم خطأ أحياناً. وإنَّ وصـف القرآن الكريم والتوراة للفرعون الذى عاصر موسـى بالتجـبر والطغيان وادعاء الربوبية – مع وجوب التسليم به – ليس من المفترض تعميم صفاته هذه على كل الفراعنة. كما لا يمكن تعميم هذه التسـمية على المصريين القدمـاء جميعهم. وإنما يمكن أن نطلق لفظ فرعون على كل حاكم يتصف بمثل ما اتصف به هذا الفرعون من صفات والتى صارت علماً عليه وصار بها موسوما.

وجملة هذه الصفات والتى أشار إليها القرآن فى بيان واضح صريح هى صفات تكاد تكون متشـابكة ومتداخلة لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. تبرز منها صفات الاستعلاء والتعالى والكبر والتكبر والطغيان والإسـراف والضلال والتضليل والإجرام والإفساد والكذب والجهل وغيرها، والتى قد شـاركه فيها أو فى بعض منها حاشيته ومَلَؤُه أو بعض قومه ليدخلوا فى إهـاب «الفرعونيـة» أو «الفكر الفرعونى». غير أنه تفرد بأكثر هـذه الصفات تجاوزاً وجوراً ونعنى بها ادعاءه الألوهية والربوبية فيقول «ما علمت لكم من إله غيرى» و «أنا ربكم الأعلى» ليضع نهاية لذلك الإسراف والطغيان والمروق وليأخذه الله الأخذة الرابية نكال الآخرة والأولى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سـورة هـود – الآية ١٠٢].

وفـى إطار تناولنا لهذه الفرعونية والكشـف عن هويتها ومحاولـة تحديدها، نتناول تلك التربة التى نمت فيها مثل هذه العقيدة أو هذا الفكر ومكّنت له من أن ينشـأ ويترعرع ليصل إلى هذا الحد من الإسراف والتجاوز. كما سنحاول تناول الفروض التى تتناول وتحاول تحديد كنه هذا الذى أصَّل لهذه الفرعونية واتصف بها ونعنى به ذلك الفرعون الذى عاصر موسـى عليه السلام وأشار إلى صفاته القرآن الكريم والعهد القديم.

ويصحب هذا التناول محاولة البحث عما سـكت عنه القرآن فيما أورده العهد القديم دون التعويل الكامل على كل ما أورده من نصوص لما يمكن أن يكون قد أصاب بعضها من تحريف أو جنوح. ثم البحث عن براهين مادية ملموسة فيما خلفه لنا التاريخ من آثار يمكن الاستدلال منها على كثير من الحقائق والأدلة التى تدعم أو تنفى ما قد تصل إليه الدراسة النظرية.

وبنـــاء على ما ســـبق من عرض فإن هذا الكتـــاب يتناول مكانة الملك فـــى مصر القديمة وقدســـيتها، وكيف نسب نفســـه إلى الآلهة فصار ابناً لها، وكيف أُلِّه بعد موته، والبحث فى كنه لقب «فرعون» ومدلوله وأصله، و «الفرعونية» وما تتصف به من صفات اســـتحقت بها اللعنة والذم، ثم نعرج إلى دراسة لبعض الآراء والفروض التى حاولت تحديد هوية ذلك الفرعون الذى تنســـب إليه هذه الفرعونية الملعونة. متمنياً أن أكون قد أوردت شيئاً للقارئ يمكن أن يصل منه إلى معرفة حقيقة ما، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل.

د. محمد أبو الفتوح محمود غنيم